أطراس في الذاكرة

بعدما أنهتِ الأسرة الصغيرة تناول وجبة السحور، أذّن المؤذن معلنا الإمساكَ عن شهوتيْ البطنِ والفرْج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. خرج الحاج "حمو" لأداء صلاة الصبح في مسجد القرية. كانت نَسماتُ الصّبح، وهو يتنفس، تنذر الصائمين بيوم آخر حار؛ يوم من أيام العذاب، والتعب، والجوع، والعبادة. يومٌ يُقلع في نهارِه سكارى الحي عن السباب والشتم والقذف. ينتظرون متى يرحل شهر رمضان؛ كي تنطلق ألسنتهم، وتنطق بما يحلو لها.

أخذت قِرْبَة الماء قبل أن يَرفع المؤذن صوته المبحُوحَ؛ هو الآخر يقلع عن التدخين والقمار، ويعتزل النساء في رمضان. شربت آخر القطرات من مياه غير باردة، اقتربت من السيدة الوالدة طامعا في جزء من لحافها أقي به جسدي النحيل من لسعات البعوض، الذي اشتد وعظُم؛ بفعل كثرة ارتشافه وامتصاصه لدمائنا.

استلقيت على ظهري فاتحا عيني تلقاء النجوم في السماء. كانت لامعة ساطعة. تذكرت عائشة ابنة خالتي، التي أحببتها في صباي. أخذني نوم عميق، وحلمت بها فيما بقي من الوقت قبل أن تلدغني أشعة الشمس الجهنمية وأستفيق. تمنيت لو أن الحلم يبقى مسترسلا، فعائشة كانت رائعة؛ بضة الجسد كما عهدتها، مستدقة الأنف، مكورة الوجه، طويلة الشعر، محمرة الشفاه، طويلة الأشفار، لوزية العينين..

عاد الحاج من المسجد، وأنفاسه تكاد تسمع من بعيد. أحس بتعب وعطش شديدين، هكذا خيل إلي. تحاشا النوم قرب السيدة الوالدة، ربما خاف مني، أو أن يفطر قبل سماع أذان صلاة المغرب.

في الماضي، قبل أن أعرف طريقا أخرى، غير طريق المسجد والمدرسة والبيت، كان شهر رمضان أحب الشهور إلي، فقد كنت أتمتع فيه بألذ الأطعمة والمشروبات، بعيدا عن صراخ والدتي وإخوتي الكبار.

كنت بمجرد ما يرفع الآذان، وأشرب الحريرة، أخرج إلى الزنقة الباهتة الأضواء لألتقي بمجموعة من الأصدقاء. يكون كل واحد منا قد أتى بما يبيعه؛ بيض مسلوق، خبز وفلفل أحمر وسردين، مشروبات عصير... نتجه بسلالنا قرب "مسجد الدرب". نصلي مع الجماعة، لكننا نترك أحدنا لحراسة ما حمِّلت به أيدينا. يخطئ الإمام كم مرة، لكن لا أحد يصحح له؛ فكل رجال الدوار أميون. ورغم ذلك فقد كانوا يأخذون زينتهم عند كل مسجد، حتى إذا رأيتهم، أعجبتك أجسادهم وملابسهم.

ذات مرة كان الإمام يقرأ سورة الرحمان فأخطأ في إحدى الآيات، حينها رفعت صوتي من الصف الأخير مصححا للإمام. سمعت حينها حناجر مبحوحة كأنها تقول لي: "لعنةً الله عليك، لقد أهنتَ الإمام". لم أنتظر السلام؛ لأنني إذا كشفت، فإنني سأنال عقابا شديدا من لدن ابن الإمام. لذلك فضلت أن أنصرف عن الصلاة، لأقي عظامي الهشة من شر محقق.

عدت عند سلتي وشرعت أبيع البيض و"الحرور". لم نكن فقراء لكي نبيع هذه الأطعمة، ولكن رغبة شديدة شدتنا لهذه الهواية. ربما لأننا نحلم

أن نصير باعة متجولين. فقد كان أغنى شخص في دوارنا، وفي الدواوير المجاورة من يمتهن التجارة. كنت أحلم أن أملك دكانا وتأتي عندي عائشة وتقول لي: "مد لي كذا وكذا وكذا"، فأمد لها "كذا وكذا وكذا"، ثم أضيف لها، أيضا، كذا؛ فتخجل وتحمر وجنتاها، ثم تنصرف إلى سبيلها مسرعة، دون تعقيب..